كتاب

دفاع عن الإسلام

تاليف

لورا فيشيا فاغليرى

دفاع عن الإسلام

هذا الكتاب ألفته فى رحابة أفق، وخلوص وإخلاص، كاتبة مسيحية هى ،لورا فيشيا فاغليرى Laura Veccia Vaglieriu أستاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية فى جامعة نابولى بإيطاليا.

وترجمه إلى الإنجليزية، الدكتور آلدو كازيللى Aldo Caselli وقد قضى فى الشرق الأوسط عدة سنوات مترحلا دارسا أحوال الأمة العربية وقد نشرت الصحف الإيطالية كثيرا من مقالاته عن الثقافة والمؤسسات الإسلامية ثم سافر إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٣٨ وهو اليوم أستاذ فى كلية هافر فورد، بنسلفانيا.

نقل الكتاب إلى العربية الأستاذ منير البعلبكى.

هناك سؤال يلح على خاطرى بينى وبين نفسى كلما جنحت إلى الصمت، وهو سلام نفسى.. وهو أحيانا أعلى صوتا من الكلام..

السؤال: إن البوذيه، هادئه ناعمه دمثة لماذا لم تنتشر مثلا كما انتشر الإسلام؟

إذاً المسألة ليست الدماثة وحدها.

هناك شىء آخر.. شىء خطير.. إنها المساواة.

هذه الصفة وهذا المبدأ الإنسانى الذى كانت تفتقده الشعوب.

إن اليونان فى أوج دولتهم كانوا يعتبرون العمال اليدويين مواطنين من الدرجة الثانية.

أما الرومان وهذا هو الأغرب فكانوا يسخرون، جهلاء، من أهل الفكر والفنون ويقول أحد قوادهم (يا ابن روما أنت للسيف أما هؤلاء – أى أهل الفكر – فدعهم) !!!

هذا حين أعلى الإسلام العلم والعلماء وأقسم الله فى القرآن الكريم بالقلم وما سطر.

من احترام الإسلام، الإنسان، سوّى بين الناس وجعل أكرمهم عند الله أتقاهم...

يرى عمر بن الخطاب وهو من هو، «بلالا» الذى كان قبل الإسلام عبدا حبشيا ثم أعزه الإسلام وأكرم إنسانيته بالحرية.. يرى عمر، بلالا، قادما فيقول، رضى الله عنه: (أقبل سيدنا).

أقول مرة أخرى لماذا انتشر الإسلام؟ ويجيب ضميرى قبل وجدانى: لأنه رسالة سماوية وليس مجرد مذهب إنسانى... ومادام رسالة سماوية فهى تحمل حماسا متقدا لا يخبو لأنها فى كل وقت قربى إلى الله ووثاق.

أقول لأنه رسالة سماوية، ظلت الحاجة إليها، دائمة.. متشوفة .. متشوقة وخاصة فى عصور العنت والظلم وإرهاق وإملاق فضائل الإنسان.. فيكون الدين السماوى ملاذا ولواذا ومرفأ ترسو عليه آلام الإنسان فيرتاح من حيرة، ويهدأ من لغوب.

أقول بل الأمر فيه سر خاص فهناك أديان سماوية ولكنها ليست فى قوة الإسلام حتى وإن كان أهلها أقوياء سياسيا، والمسلمون ضعاف سياسيا.. لا أقول هذا من موقع أنى مسلمه ولكن كما تقول كاتبة مسيحية غربية!

(لايزال العقل البشرى يقف ذاهلا دون اكتشاف القوى السرية التى مكنت جماعة من المحاربين البداة من الانتصار على شعوب متفوقة عليها تفوقا كبيراً فى الحضارة، والثروة، والخبرة، والقدرة على شن الحرب.. ومن أدعى الأمور إلى الدهشة أن نلاحظ كيف استطاع أولئك الناس أن يحتلوا تلك المناطق كلها، وأن يثبتوا بعد ذلك فتوحاتهم على نحو جعل حتى الحروب المتعاقبة قرنا بعد قرن عاجزة عن إخراجهم منها، وكيف استطاعوا أن يلهبوا نفوس أتباعهم بتلك الحماسة الفائقة لمثلهم العليا، **وأن يحتفظوا بحيوية نابضة لم تعرفها الأديان الأخرى** حتى بعد انقضاء عشرة قرون على وفاة محمد، وأن يفرغوا فى عقول أتباعهم، على الرغم من انتسابهم إلى عصر وثقافة مختلفين كل الاختلاف عن عصر المسلمين الأولين وثقافتهم، إيمانا متقدا لا يحجم عن القيام بأيما تضحية مهما غلت.

أقول كان «اختاتون» مخلصا فى دعوته إلى التوحيد وإلى **فضائل** الدماثة والتواضع حتى ألغى وهو الملك الامبراطور ألقابه الملكية وسمى نفسه «**العائش على الصدق**..».

كان ملكا امبراطورا غنيا له ملك مصر والأنهار تجرى من تحته كما قالها «مرنبتاح» من اعتزازه بالعرش العريق.. ولكن اخناتون على الرغم من تأثيره الباقى فى نواح عدة، لم يبلغ ما بلغه الرسول عليه السلام، من تمكين.

لقد أعاد الإسلام، السلام إلى نفوس أجدبتها الحروب، وبراها اللغوب، وأشقاها الشغوب، وأضناها الضياع فكان السلام بينها، إعجازاً وإنجازا وسكينة...

أليس إعجازا ومعجزة أن تصبح الامبراطورية الفارسية، أرضا عربية بعد ستة عشر عاما من الهجرة؟

ثم توالى الظفر والهيمنة حتى بدا النجاح كما تقول المؤلفة (قد جعل لأقدام الفاتحين، أجنحة).

وتقول (وقد أتبعت هذه الانتصارات الرائعة **بتنظيم البلدان المفتوحة**، وتوطيد أقدام العرب فيها. **ولم يكن هذا الصنيع أقل إعجازا من الفتوح نفسها**. فيض جديد من حياة عارمة يتدفق فى عروق تلك الشعوب الخائرة القوى.. لقد تجلى أمام عيون العالم المندهش دين جديد، بسيط.. سهل يخاطب القلب والعقل جميعا.. وأقيم شكل جديد من أشكال الحكومة كان أسمى إلى حد بعيد – فى خصائصه ومبادئه الأخلاقية – عن تلك المعروفة فى ذلك العصر).

وتقول عرفت البلاد المفتوحة عهدا من الرخاء والازدهار، وشهدت غنى **لم تشهده آسيا منذ قرون طويلة**.

وتقول أزعج هذا التحول السياسى والدينى العميق طائفة من الناس فراحوا يتساءلون ما الذى أدى إلى حدوثه؟ ولكن كثيرا منهم كانوا عميا.. لم يريدوا أن يعتقدوا أن حكمة الله وحدها كانت مسئولة عن رسالة محمدا!

أقول لقد كانت دعوة الرسول عليه السلام، فوقها إله يؤيدها بنصر من عنده وقبول.

لقد فندت الكاتبة المسيحية عندما خلصت منها النية وحكمت الضمير وحده، المقولة التى تزعم أن الإسلام انتشر بالسيف. ففى رأيها، وهو صواب، أن القتال فرض عليه بعد

الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة فرض القتال عليه لإنقاذ نفسه وجماعته الصغيرة من الهلاك.. (كان الصراع يدور بين الفوضوية، ومادية الوثنيين المتبربرين، ومخاصمات وأكاذيب اليهود غير المتسامحين على الرغم من تحضيرهم من ناحية، وبين مثل أعلى رفيع فى التجدد الدينى والاجتماعى من ناحية أخرى.

كان لدن وصوله إلى المدينة قد مد يد الصداقة، أول ما مدها، إلى اليهود الذين مثلوا فى هذه المدينة جماعة غنية مزدهرة.. لقد دعاهم إلى التعاون الصادق فى وحدة سياسية واجتماعية.. ولكنه حين أدرك أنهم معادون له عداء مطلقا وأنهم مصرون على اتباع سبيل خاطئة غادرة تعين عليه أن يقاتلهم.

كانت الحرب دفاعا ضروريا، لا عدوانا جائرا..

(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم **ولاتعتدوا**، إن الله لا يحب المعتدين). السورة ٢-البقرة آية/ ١٩٠.

أقول وهل كان عنده من السلاح والعتاد الحربى ما عند الفرس والروم ولا أقول ما يفوق الفرس والروم؟

لقد نهض بهذا الحمل والحمله، وأنصاره قلة قليلة (وكان لدن وصوله إلى المدينة قد مد يد الصداقة، وأول ما مدها، إلى اليهود الذين مثلوا فى هذه المدينة جماعة غنية مزدهرة. لقد دعاهم إلى التعاون الصادق فى وحدة سياسية واجتماعية ولكنه حين أدرك أنهم معادون له عداء مطلقا وأنهم مصرون على اتباع سبيل خاطئة غادرة.. هنا تعين عليه أن يقاتلهم ويعاقبهم...

هل يعزى انتشار الإسلام إلى السيف، والقرآن الكريم يقول (لا إكراه فى الدين، قد تبين الرشد من الغىّ) سورة ٢ آية/٢٥٦.

ويقول: (وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) سورة ١٨ آيه ٢٩.

وتسوق الكاتبة الأجنبية فى معرض حججها أن الرسول عليه السلام قال يوما لأحد صحابته (لماذا تريد أن تكره الناس على الإيمان، والإيمان لايمكن أن يأتى إلا من عند الله؟).

وتقول الكاتبة (كان رجلا فى أوج قوته، رجلا يرأس دولة رفيعة التنظيم، ويقود جنودا صالحين مطيعين كان فى ميسوره أن يستخدمهم ضد أى امرىء، يقع اختياره عليه).

أقول وما أكثر الذين عادوه وكادوا له وليس آخرهم بنو قريظة وبنو قينقاع.

تقول المؤلفة : (إن تاريخ السنوات الأولى من الإسلام يقدم إلينا عددا من الأمثلة على التسامح الدينى الذى أظهره الخلفاء الأولون نحو أتباع الديانات الموحدة. فكما أعطى الرسول نفسه ضمانات إلى نصارى نجد بأن مؤسساتهم المسيحية سوف تصان، وأصدر أمره إلى قائد إحدى الحملات العسكرية إلى اليمن لايؤذى يهودى فى يهوديته، فكذلك وجه الخلفاء إلى قادتهم العسكريين تعليمات مماثلة حول مسلك جيشهم فى الحرب.

وتقول المؤلفة:

(كان المسلمون يتركون للشعوب حرية العقيدة ولا يكرهون أحدا على الدخول فى الدين الجديد والجيوش الإسلامية لا تصحب معها حشداً من المبشرين الملحاحين غير المرغوب فيهم.. وما كانت تضع المبشرين فى مراكز محاطة بضروب الامتياز لكى ينشروا عقيدتهم أو يدافعوا عنها.. ليس هذا فحسب بل طلب المسلمون إلى الراغبين فى الإسلام أن يمثلوا أمام القاضى ويعلنوا أن إسلامهم لم يكن نتيجة لأى ضغط وأنهم لا يهدفون من وراء ذلك إلى أى كسب مادى أو دنيوى.

ليس هذا فحسب بل عُهد إلى بعض اليهود والنصارى فى تولى المناصب الحكومية حين كانت مؤهلاتهم الشخصية من القوة بحيث تلفت أنظار الحاكمين).

لقد تقولوا على الرسول بأنه آمن به الأرقاء والمستضعفون أقول: هل كان عمر ابن الخطاب مستضعفا وهو الذى دعا الرسول ربه (اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو أبى جهل).

هل كان عثمان الغنى مستضعفا؟
هل كان أبو بكر الموفور الثرى مستضعفا؟
هل كان خالد بن الوليد مستضعفا؟
هل كان أبو سفيان مستضعفا؟

لقد آمن به أشراف قومهم وآمن به الأذكياء والأقوياء بعد أن لمسوا **صدقه**.. بعد أن لمسوا فى وقت واحد! **عدله ورحمته** وهما صفتان، كما تقول المؤلفة من أنبل الصفات التى يستطيع العقل البشرى تصورها.

أقول إن معجزته الكبرى أن خلق من الصحراء نفوسا خصبة بالعدل والرحمة.. أن خلق من القبائل المتفرقة المتطاحنه أمة واحدة مستمسكة بالعروة الوثقى... أمة عمرت

وأثرت الحياة وأخذت بأسباب العلم ونبغ منها كثيرون أمثال البيرونى وابن الهيثم وابن رشد وابن سينا وابن حزم والأئمة الأربعة ومعهم الليث بن سعد.

أقول: كيف انتشر الإسلام فى أوروبا وأمريكا مع ضعف المسلمين سياسيا! وقوة الأوربيين والأمريكيين دوليا وماديا وعسكريا؟

وتقارن المؤلفة المسيحية بين الإسلام وغيره قائلة وهذا نص عبارتها:

(لم يكن عند المسلمين مجامع كنسية مقدسة تحاول أن تفرض صيغة دقيقة ينبغى اعتبارها رمزا حيا للعقيدة المستقيمة أو «الارثوذكسية» .. إن الإسلام لم يمنح أحدا من أتباعه الحق فى الحكم على إيمان أخيه فى الدين.

وتقول المؤلفه المسيحية عن القرآن الكريم:

إن معجزة الإسلام العظمى هى: القرآن الكريم الذى ينقل إلينا الرواية الراسخة غير المتقطعة، من خلاله، أنباء تتصف بيقين مطلق، إنه كتاب لاسبيل إلى محاكاته... إن الأثر الذى يحدثه فى النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عون عرضى أو إضافى، من خلال **سموه السليقى**.

إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة. إنه يكرر أوصاف بدء العالم ونهايته وصفات الله وتفسيرها، مثلا، ولكنه يكررها على نحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها. وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته. إننا نقع على **العمق والعذوبة معا.. وهما صفتان لا تجتمعان عادة** حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقا كاملا.. **فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز، من عمل محمد؟** وهو العربى الأمىّ؟

أقول مع شوقى فى الهمزية!

يا أيها الأمىّ حسبك رتبة ∴ فى العلم أن دانت بك العلماء

تقول المؤلفة:

(إن انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة.. إن الذى أدى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذى قدمة المسلمون إلى الشعوب الأخرى مع تخييرها بين قبوله ورفضه، **كتاب الله كلمة الحق**).

وتقول المؤلفة:

(وبينما نجد جميع الأديان الأخرى تقدم إلى أبنائها حملا ثقيلا من العقائد التى لا يستطيعون حملها وفهمها: نرى الإسلام ذا **سهولة معجزة، وبساطة نقية كالبلور.**

وكان ذلك سببا أيضا .. سبباً آخر فى انتشاره السريع إبان الفتوحات الأولى بين أناس غرقوا فى اضطراب روحى عميق بسبب من الغموض الذى يكتنف بعض معتقداتهم الدينية. وهو أيضا السبب فى انتشاره الموصول اليوم بين الشعوب غير المتحضرة فى آسيا وافريقية، لأن الإسلام قادر على النافذ إلى أعماق نفوسهم من غير مالجوء إلى شروح مطوله أو عظات معقدة).

أقول إنه اليسر، سره الكبير.. إنها سماحته وبساطته كالأصداف بسيطة وتحمل اللآلىء الثمينة.

وفى باب المقارنات تقول المؤلفة إن الأديان عرفت الإحسان، وجها من وجوه الخير ولكن الإسلام ألزم المسلم بالزكاة (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم).

الزكاة فى الإسلام أحد أسسه الخمسة.

تكلمت المؤلفة عن الإسلام والسلوك.. عن الإسلام والحضارة.

عن زيجات الرسول قائلة (تزوج محمد من نسوة لم يكن لا عذارى ولا شابات ولا جميلات فهل كان ذلك شهوة؟ كلا).

وأقول كانت عائشة عذراء جميلة وشابه وكان أبوها أبوبكر صديقه ورفيقه فى الغار وهى بهذا كله أثيرة لديه.. ومع هذا تزوج غير الشابات وغير العذارى، وغير الجميلات.. لأسباب تتعلق بالدعوة أسباب سياسية كما يقال فى العرف السياسى.. ولكل زيجة قصة إنسانية بليغة...

أضيف: إنه صلى الله عليه وسلم تزوج السيدة خديجة رضى الله عنها وهى فى الأربعين وكان هو فى الخامسة والعشرين. ولم يتزوج عليها طيلة حياتها وتزوج بعدها الأخريات لأسباب متعددة وكان هذا بعد أن بلغ الثالثة والخمسين أى ليس فى سن الاشتهاء.

أقول لقد تزوج موسى عدة مرات.

وتزوج الأنبياء الآخرون.

تحدثت المؤلفة عن صلة الإسلام بالعلم

ولكن ما أريد أن أضيفه في اعتزاز أن الإسلام **لايرفض إلا الإلحاد.**

ما أريد أن أضيفه أن الإسلام **تفرد** بالاعتراف بالأديان السماوية جميعا وبالكتب السماوية **في صورتها الأولى** كما أنزلت قبل أن يمسها تغيير من أى حجم وصفة..

إن الإسلام حين يقول (كنتم خير أمة أخرجت للناس) يقرن هذا بقوله فى تمام الآية: (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) كل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى عداد الخيرين الأخيار.

والإسلام حين يقول: (إن الدين عند الله الإسلام) بما هو دين الفطرة السليمة حتى بعد كل من سبقوه ممن سلمت فطرتهم ولسانهم وأعمالهم، مسلمين.

(ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) ١٢٥ م. النساء/٤

(فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا) ١٤ ك الجن/٧٢

(وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ٤٤ ك النمل/٢٧.

واعتراف الإسلام بالأديان الأخرى، توفيق وتوثيق فهو يستقطبها فيه بما هو خاتمها الجامع وختامها العاطر.

واعترافه بالأديان الأخرى، نفاذ شديد بقفل الباب أمام الردة، عنه، إذ فيم الرجوع وإلى أين؟ إلى المسيحية؟ إنه يعترف بها..

إلى اليهودية؟ إنه يعترف بها...

إن الإعتراف بالأديان الأخرى حظ كبير للإسلام ينفرد به ونبعه تسامح تحفظ عليه بشره وقوته وسط الظروف كلها وهى دليل قوة شخصية ووثوق.

ولعل هذا سر تمسك المسلم تمسكا غريبا بالإسلام حتى ليستحيل تحوله، مختارا، إلى دين آخر بينما يدخل أهل الأديان الأخرى فى الإسلام معززين منه وفيه.

أقول إن الإسلام دين الفطرة. لقد شرح «ابن طفيل» المسألة عقلانيا ولكن التجربة الدينية: بصيرة.. انفتاح.. التجربة الدينية لاتعادى العقل ولكنها أبعد منه مدى.. إن الخلد عندها لايعنى استمرار الزمن ولكن يعنى ما وراء الزمن...

كان التوحيد الإسلامى هو المحور الثقافى

توحيد الذات فلا انفصام ولا تشقق.

توحيد المجتمع فيبرأ من الشيع والتطاحن.

توحيد العالم نحو القيمة الكبرى أى الله.

ومن هنا يأتى التدين فى الإسلام تفسيرات وجدانية ارتفعت على لغو الكلام وعقم الجدل وأترعت بسلام وطمأنينة هى حكمة قلب حقق عمليا معنى التوحيد ومعانى الرحمة والبناء وعز الكلام والإتقان ونعيم البر بالحرفة وأبهة الخلق المتطلق والمطلق، وضمت الخاشع المستمع وهناءة المستمرئ السعيد.

الإيمان فى الإسلام هو ما استقر فى القلب وصدقه العمل، فلا يقول قائل (لا حول ولا قوة إلا بالله) ثم يخاف من إنسان حاكما أو محكوما ولا نقول (إياك نعبد وإياك نستعين) ثم نتخذ من دونه أربابا.

ومن هنا يكون الإسلام كرامة واعتدادا. فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين.